Journal of Alasmarya University
Volume 16, June 2012

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد السادس عشر، يونيو 2012

تصنيف العلوم عند المسلمين

د. مرزوق العمري*

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

شكل عنصر الثراء الذي تميزت به المنظومة المعرفية الإسلامية باعثاً لعلماء الإسلام ليقبلوا على التفكير في كيفية الحفاظ على هذه المنظومة، وكان السبيل الأقوم بطبيعة الحال هو العمل على تعلم هذه العلوم وتعليمها، ولكن أمام تناميها وكثرتها وتقاطع مواضيعها واطراد إشكالياتها صار أمر استيعاب مسائلها من الصعوبة بمكان، فاقتضى الأمر التفكير في إجراء منهجي تعليمي يعين على ذلك فكان التأسيس لعلم تصنيف العلوم.

وعملية التصنيف فضاء تتقاطع فيه عدة معارف: فيه الفلسفة، وفيه التاريخ، وفيه المنطق، ...، وغير ذلك، وهو أمر عرف عند اليونان فقد عرف عن أرسطو أنه الخصوصية لارتباطه بالنص المقدس وبعلوم الدين أولاً، وللتنوع الذي تميزت به العلوم عند المسلمين ثانياً.

ولهذا فهذه الدراسة تعالج موضوع تصنيف العلوم عند المسلمين انطلاقاً من الأسباب التالية:

---

* جامعة باتنة، الجزائر.

1. سبب معرفي يهدف إلى التعريف بعلم تصنيف العلوم عند المسلمين، وما الذي خالفوا فيه فلاسفة اليونان؟ ومدى مطابقة هذه العملية للواقع المعرفي الإسلامي؟.
2. سبب بيداغوجي يتمثل في تعليمية العلوم الإسلامية؛ أي كيفية مساهمة عملية التصنيف في تيسير تعلم العلوم الإسلامية.

انطلاقاً من هذين السببين يمكن تصور هذه الإشكالية التي تتمحور حولها هذه الدراسة والتي يمكن صياغتها في التساؤلات التالية: ماذا يراد بعلم تصنيف العلوم؟ وما هي تيارات العملية التصنيفية عند المسلمين؟ وما هي آثار عملية التصنيف على الفكر الإسلامي.

إن صياغة إشكالية الدراسة على هذا النحو اقتضت الاعتماد على منهج ثلاثي الأبعاد: أحدهما تاريخي وثانيها وصفي، والثالث تحليلي، كما اقتضت العودة إلى بعض الدراسات التي كانت في هذا الموضوع مثل كتاب مباحث في منهجية التفكير الإسلامي للدكتور عبد المجيد النجار.

تصنيف العلوم: المفهوم والنشأة

المفهوم

التصنيف عملية ترتيب التصورات فيما بينها وهو عملية منطقية تراعي ترتيب الأجناس والأنواع حسب درجة عموميتها، ومن هذه الناحية يتقاطع التصنيف مع التعريف؛ لأن التصنيف يتم بالجنس والفصل، والتصنيف يدل على معرفة الجنس، ومنه فتصنيف العلوم هو ترتيب معين لها حسب درجة عموميتها وكيف تندرج تحت بعضها.

وقد وضعت لها تعريفات عند المسلمين منها تعريف طاش كبري زادة الذي عرفه بقوله: «هو علم باحث عن التدرج من أعم الموضوعات إلى أخصها ليحصل بذلك موضوع العلوم المتدرجة تحت ذلك الأعم»[1].

وقال الفارابي عن المقصد من كتابه إحصاء العلوم -الذي يستفاد منه تعريف لتصنيف العلوم- قال: «قصدنا في هذا الكتاب أن نحصي العلوم المشهورة علماً علماً ونعرف جمل ما يشتمل عليه كل واحد منها، وأجزاء كل ماله منها أجزاء، وجمل ما في

1- طاش كبري زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة، طبعة دار الكتب الحديثة ، القاهرة. ج 1 ص 324.

كل واحد من أجزائه »[2].

من خلال هذين التعريفين يفهم أن هذا العلم بني ليكون إحصاء منهجياً للمعارف عند المسلمين قصد تسهيل تحصيلها، وهذا ما يفسر بناء التعريفين على التجزئة واندراج الخاص تحت العام، كما أنه من الصعوبة بمكان الإلمام والإحاطة بجميع العلوم، وهنا تتجلى أهمية التصنيف كإجراء منهجي يعين على تحصيل العلم.

يقول حاجي خليفة: « العلوم والكتب كثيرة، والأعمار عزيزة قصيرة، والوقوف على تفاصيلها متعسر بل متعذر، وإنما المطلوب ضبط معاقدها، والعثور على مقاصدها ». وهذه العملية تنبني على نقاط التقاطع بين العلوم، وأي العلمين انبنى على الآخر، ومدى الاستعانة بهذا العلم أو ذاك.

كما يبدو أن علم تصنيف العلوم ذو غاية تعليمية، وهذا ما يستشف من قول الفارابي: « ... وينتفع بما في هذا الكتاب لأن الإنسان إذا أراد أن يتعلم علماً من هذه العلوم وينظر فيه على ماذا يقدم؟، وفي ماذا ينظر؟، وأي شيء يستفيد بنظره؟ وما غناء ذلك؟ وأي فضيلة تنال به؟، ليكون إقدامه على ما يقدم عليه من العلوم على معرفة وبصيرة لا على عمى وغرر »[3]، وقد أشار ابن خلدون إلى هذا حينما تحدث عن العلوم الشرعية خاصة بحكم أنها بلغت الغاية من النضج والتنظيم وما إلى ذلك فقال: « إن هذه العلوم الشرعية النقلية قد نفقت أسواقها في هذه الملة بما لا مزيد عليه وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية التي لا شيء فوقها وهذبت الاصطلاحات ورتبت الفنون فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتنميق، وكان لكل فن رجال يرجع إليهم فيه أوضاع يستفاد منه التعليم »[4].

كما يبدو أن استحداثه في الإطار المعرفي الإسلامي كان في إطار منهجي معرفي تربوي. يقول الدكتور عبد المجيد النجار: « ليس لاستحداثه في هذا الإطار من قبل المسلمين وفي مجال ثقافي إسلامي من غاية سوى أن يكون عاملاً على بناء فكر

2- الفارابي: إحصاء العلوم، طبعة مركز الإنماء القومي ، لبنان (1991) ص 7.

3- المصدر نفسه والصفحة.

4- ابن خلدون: المقدمة، دار القلم ، بيروت، ط (1409هـ/1989م) ص 436.

إسلامي متقوم بحقيقة العقيدة الإسلامية»[5]، وقد أشار الدكتور عبد الرحمن مرحبا عند تطرقه لتصنيف الفارابي وما خالف فيه أرسطو إذ ذكر أنه أضاف علمين إسلاميين هما: الفقه والكلام، ولهما أهمية كبيرة في اتجاهه الفكري وفي عقيدته، وعلى هذا فالخلاف بينهما خلاف في المنهج والغاية[6].

إن علم تصنيف العلوم ليس مجرد عملية وصفية بل هو علم معياري. يقول النجار: « إن هذا العلم يحمل في ظاهره الوصفي التقريري غاية معيارية تتمثل في اتخاذه من وصف ما كان في واقع العلوم بناء لما ينبغي أن يكون في توجهات العقل إلى مواضع المعرفة سواء على مستوى تربوي بالإرشاد إلى كيفية استيعاب العلوم وتمثله، أو على مستوى إبداعي بالتوجيه على المستجد من مناطات الاستكشاف العقلي »[7].

هو علم على علاقة بالتاريخ وهذا ما يستوحي من كلام ابن النديم في تصنيفه إذ اعتبره تتبع تاريخي للعلوم عند المسلمين حيث يقول: « هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم وأخبار مصنفيها وطبقات مؤلفيها وأنبائهم وتاريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم وأماكن بلدانهم ومناقبهم منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة»[8]، فهو على علاقة بالتاريخ إذا من هذه الجهة، وبالمنطق من جهة أخرى حتى سمي بمنطق العلوم.

النشأة

بما أن عملية التصنيف كانت في إثر عملية تأسيس العلوم عند المسلمين فبالتأكيد كانت متأخرة شيئاً ما عن هذه العلوم ومتأخرة عن ترجمة الفلسفة اليونانية،

5- عبد المجيد النجار: مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، ط1(1992)، ص41.

6- عبد الرحمن مرحبا: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط3 (1983)، ص384.

7- عبد المجيد النجار: مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، ص33.

8- ابن النديم، الفهرست، دار الكتب العلمية، بيروت، ضبط وشرح وتعليق وتقديم الدكتور يوسف علي الطويل، ط1(1416هـ-1996م)، ص7.

لأن عملية التصنيف كانت بدايتها تقليداً لليونان مع بعض الإضافات التي فرضتها الخصوصية الإسلامية، ومنه فكتابات المسلمين في هذا الحقل المعرفي تعود إلى لحظة الفارابي (ت 339هـ) الذي يمكن اعتباره بداية الاهتمام بعلم تصنيف العلوم وكتابه إحصاء العلوم أول المصنفات التي وصلتنا في هذا الباب.

وهو كتاب صغير لكنه مهم جداً قال عنه الدكتور عبد الرحمن مرحبا: «لا نحسب أن أحداً سبقه إليه أو ذهب مذهبه فيه ... وقال عنه أيضاً بأنه صغير في حجمه كبير في فائدته عظيم في دلالته ومعناه»[9] لذلك من المستشرقين من اعتبره للموسوعة أقرب منه للكتاب[10]، صنف فيه العلوم التي كانت سائدة في زمنه مع تقليد ظاهر لليونان، وإن كان الدكتور مرحبا اعتبره خالف اليونان خاصة أرسطو الذي اشتهر في هذا المجال.

ثم تلا جهد الفارابي تصنيف آخر هو رسائل إخوان الصفا وهي الجماعة التي تبلورت في منتصف القرن الرابع حيث تضمنت رسالة الصنائع العلمية من رسائلهم وجهة نظر عدت عند المهتمين بالفلسفة الإسلامية على أنها مساهمة في علم تصنيف العلوم عند المسلمين.

ثم كان إسهام محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي المتوفى سنة (387 هـ) وتأليفه لكتاب مفاتيح العلوم خدمة أخرى لهذا الفضاء العلمي الذي بدأ يتنامى داخل المنظومة الإسلامية. ثم تتالى التأليف في تصنيف العلوم عند المسلمين حيث كتب ابن سينا (ت 428هـ) رسالة في أقسام العلوم العقلية، وكتب ابن النديم المتوفى سنة (438هـ) موسوعته الفهرست التي كانت من أهم المدونات في القرن الخامس، وكتب الإمام ابن حزم رسالة بعنوان: مراتب العلوم، وفي القرن الخامس أيضاً كتب أبو المظفر محمد بن أحمد المتوفى سنة (507 هـ) طبقات العلوم.

وبعد هذه التأليفات دخل علم تصنيف العلوم مرحلة أخرى في تاريخ نشأته عند المسلمين مع ظهور ابن خلدون (ت 808هـ) الذي راعى في تصنيفه حالة العمران حيث جعل من فصول مقدمته فصلاً بعنوان: في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة. واعتبر نفاق سوق العلوم مرهون بتطور العمران وتراجعه مرهون أيضاً

9- عبد الرحمن مرحبا: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ص382.

10- المرجع نفسه والصفحة.

بخراب العمران، يقول ابن خلدون: «فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصنائع ومن تشوف بفطرته إلى العلم ممن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة فلا يجد التعليم الذي هو صناعي لفقدان الصنائع في أهل البدو»[11].

وزمن الخلافة العثمانية كانت هناك تصنيفات منها: مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبري زادة المتوفى سنة (968هـ)، وكذا كشاف اصطلاحات الفنون لمحمد بن على التهانوي المتوفى سنة (1158 هـ)، الذي كان الباعث على تأليفه حسب مؤلفه هو ضبط المصطلح ومراعاة البعد العلمي في عملية التصنيف، وتوفير ما يحتاج إليه المتعلم إذا ما غاب عنه الشيخ، يقول التهانوي: «لم أجد كتاباً حاوياً لاصطلاحات جميع العلوم المتداولة بين الناس وغيرها، وقد كان يختلج في صدري أواه التحصيل أن أؤلف كتاباً وافياً لاصطلاحات جميع العلوم كافياً للمتعلم من الرجوع على الأساتذة العاملين بها كي لا يبقى حينئذ للمتعلم بعد تحصيل العلوم العربية حاجة إليهم إلا من حيث السند عنهم تبركاً وتطوعاً»[12].

وهكذا نجد أن عملية التصنيف نشأت في القرن الرابع عند المسلمين وامتدت حتى القرن الثاني عشر، وهذه الكتابات بتكاملها شكلت لنا فضاء معرفياً عد رافداً من روافد الفلسفة الإسلامية، بدأ بتقليد اليونان ومحاولة أسلمة تجربتهم مع الفارابي إلى ربط العلوم بطبيعة العمران مع ابن خلدون، إلى التفكير في التأسيس لتعليمية العلوم الإسلامية مع التهانوي، وكلها أعمال بتكاملها أسست لنا فضاء معرفياً عرف بتصنيف العلوم عند المسلمين.

تيارات التصنيف

وخلال هذا المسار الطويل الذي اهتم فيه المسلمون بعملية التصنيف وعلى كثرة الكتابة فيه وتنوعها، يمكن القول إن عملية تصنيف العلوم عند المسلمين مثلتها نزعتان أو تياران اثنان أحدهما تقليدي والآخر أصيل.

11- ابن خلدون: المقدمة، ص434.

12- التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، دار الكتب العلمية بيروت، ط1 (1418هـ-1998م)، ج1، ص5.

التيار التقليدي

ومثلته الكتابات التي تعد بداية الاهتمام بهذا النمط من المعرفة عند المسلمين، والتي كان التأثر باليونان، مثل كتابات الفارابي وابن سينا وإخوان الصفا ... وغيرهم، وقد تجلت خاصية التقليد في عدة أمور منها:

أ. عملية التصنيف: حيث كانت تصنيفات هؤلاء نقل لتجربة أرسطو وتوظيفها في الإطار الإسلامي، وتجلى هذا بشكل خاص مع ابن سينا حيث قسم العلوم إلى قسمين اثنين:

أحدهما: قسم نظري وينقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام هي:
- العلم الأسفل: ويسمى العلم الطبيعي.
- العلم الأوسط: ويسمى العلم الرياضي.
- العلم الأعلى: ويسمى العلم الإلهي.

والثاني: قسم عملي وينقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام هي:
- علم الأخلاق.
- علم تدبير المنزل.
- علم السياسة المدنية.

إن المتأمل في هذا التصنيف الذي وضعه ابن سينا يجد أنه لم يزد شيئاً عما فعله أرسطو، ولذلك عد هذا النموذج وغيره في تصنيف العلوم تقليداً لأرسطو، والذين ساروا في هذا الاتجاه عدوا من التيار التقليدي.

ب. المفاهيم الموظفة: المتتبع لمفاهيم ومصطلحات المصنفين الأوائل يلمس بقوة توظيف المصطلح الذي كان سائداً لدى اليونان، وفي الفلسفة اليونانية أكثر مما هو عند المتأخرين، مثل: علم التعاليم، العلم المدني عند الفارابي، وعلم السياسة المدنية وعلم تدبير المنزل عند ابن سينا، وهي مفاهيم مفقودة عند المتأخرين، ثم أثر المصطلح فيما بعد في وضع التعريفات فيلمس القارئ فرقاً واضحاً في تعريف علم الكلام بين الفارابي وغيره، حين عرفه بقوله: «صناعة الكلام ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال التي صرح بها واضع الملة وتزييف كل ما خالفها

بالأقاويل »[13].

فالمتأمل في هذا التعريف يجد أنه تضمن مصطلحات غير سائدة عند المتكلمين أنفسهم، وسبب ذلك هو توظيف المصطلح الفلسفي في هذا المجال مما يدل على المنحى التقليدي في عملية التصنيف عند الفارابي.

ج. ذكر بعض المعارف اليونانية مثل المنطق، ولذلك نجد الفارابي مثلاً يعتبر المنطق وهو علم يوناني صنفاً من أصناف العلوم[14] على الرغم من أن المعلم الأول لم يصنفه، وعلى الرغم من أن العملية التصنيفية متعلقة بعلوم المسلمين، وأشاد به قائلاً: « صناعة المنطق تعطي بالجملة القوانين التي شأنها أن تقوّم العقل وتسدد الإنسان نحو طريق الصواب ونحو الحق في كل ما يمكن أن يغلط فيه من المعقولات والقوانين التي تحفظه وتحوطه من الخطأ والزلل »[15].

والمتأمل في عملية التصنيف عند هذا التيار قد لا يجدها واحدة وغير متطابقة مع سائر التصنيفات التي يمكن اعتبارها على أنها من ضمن هذا التيار، ولكنها تلتقي في كونها منطوية على التأثر بالتصنيف اليوناني ولذلك اتسمت عملية التصنيف عند هذا التيار بعدة خصائص مثل:

1. تقليد اليونان: خاصة أرسطو، وإن كان هناك تفاوت بين تصنيفات هذا التيار في درجة التقليد، فابن سينا مثلاً كما سبقت الإشارة إلى تصنيفه لم يزد شيئاً عن أرسطو بينما الفارابي أدرج بعض العلوم الإسلامية كالفقه وعلم الكلام، ولذلك عند تصنيف الفارابي رغم منحاه التقليدي محاولة لأسلمة العملية التصنيفية[16]، ورغم هذا التفاوت إلا أنها تمحورت حول الفصل بين العلم النظري، والعلم العملي وهذه من أبرز خصائص التصنيف الأرسطي. يقول الدكتور عبد المجيد النجار: « لقد اجتمعت هذه التصانيف في هيكلها العام على مبدأ الفصل بين العلوم النظرية والعلوم العملية، وجعل النظرية تدور على الإلهيات والرياضيات والطبيعيات والعملية تدور على الأخلاق والسياسة المدنية والمنزلية وهو ما يجعل هيكلها العام جميعاً يحاكي

13- الفارابي: إحصاء العلوم، ص41.

14- المصدر نفسه، ص13.

15- المصدر نفسه، والصفحة.

16- هذا ما ذهب إليه الدكتور عبد الرحمن مرحبا وقد سبقت الإشارة إليه.

الهيكلة الأرسطية »[17].

2. التجريد: وهي صبغة الفلسفة اليونانية بشكل عام، وهـي الفلسـفة الـتي كانـت ترتـب الحكمة النظرية في الصدارة وتجعل دونها الحكمـة العمليـة، ومـن ثـم طغـى عليهـا الطابع التجريدي البعيد عن المعيار المـادي، ولـذلك حينمـا وضـع فلاسـفة الإسـلام الأوائل تصنيفاتهم لم تكن تلك التصنيفات متابعة دقيقة للعلوم في الفضاء الإسـلامي بقدر ما كانت تصور لما يمكن أن تكـون عليـه المعرفـة، ولـذلك نجـد الفـارابي في ذكره لعلوم اللسان على الرغم مـن أنهـا تشـكل معجـزة العـرب كمـا قـال الـدكتور محمد عابد الجابري، لكنه لم يتطرق إلى العلوم المندرجة تحـت علـم اللسـان عنـد العرب مثل النحو والصرف والبلاغة[18].

3. التعميم: أي أن هذا الاتجـاه لم يكـن مصـنفاً للعلـوم عنـد المسـلمين فقـط بـل كـان يتعاطى مع المعرفـة الإنسـانية بشـكل عـام، ولـذلك تم التركيـز علـى المنطـق عنـد الفارابي وحتى عند ابن سينا الذي جعـل مـن فصـوص كتابـه عيـون الحكمـة فصـلاً سمـاه: (المنطقيـات)[19] وهـذا مـا تجلـى في عبـارات إخـوان الصـفا فقـد ورد في رسائلهم: « نريد أن نذكر أجناس العلوم وأنواع تلـك الجنـاس ليكـون دلـيلاً لطـالبي العلم على أغراضهم »[20].

وهذه الخاصية ترتب عليها إبعاد شبه كلي للعلوم الإسلامية في تصـنيفات هـؤلاء عدا بعض الاستثناءات كما مر مع الفارابي في إدراجه للفقه والكلام، وبناء عليه اعتبر هـذا النموذج التصنيفي تياراً تقليديا في مقابل تيار آخر له مسـلك تصـنيفي آخـر وهـو التيـار الأصيل.

التيار الأصيل

وهو التيار الذي نما بعدما تجاوز المسلمون الاطلاع على ثقافـة اليونـان.، ولـذلك

17- عبد المجيد النجار: مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، ص49.

18- انظر الفصل الخاص بعلوم اللسان ضمن كتابه إحصاء العلوم، ص9 وما بعدها.

19- ابن سينا: عيون الحكمة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار القلـم بـيروت، ط2، بـلا تـاريخ، ص1، ومـا بعدها.

20- رسائل إخوان الصفا، نقلاً عن عبد المجيد النجار، مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، ص54.

كان التركيز على التصنيف انطلاقاً من البيئة الإسلامية فكان تتبع المعرفة من الواقع الإسلامي أكثر مما هو تقليد لليونان، وقد مثلت هذا التيار تصنيفات ابن النديم، وابن الحزم، وابن خلدون ... وغيرهم، وقد كانت مراعاة البعد الشرعي واضحة عند هذا التيار من خلال استيعاب عملية التصنيف لجميع العلوم الإسلامية، ومن خلال تجلي هذا البعد سواء على مستوى توظيف المفاهيم الشرعية أو على مستوى إبراز أحكام شرعية بخصوص بعض العلوم من حيث قيمتها وعدم التصورات العقلية.

ويتجلى المنحى التأصيلي عند هذا التيار من خلال التركيز على عدة أمور شكلت بتكاملها أصالة التصنيف عند هذا التيار، ومن هذه الأمور:

أ. التركيز على العلوم الشرعية: وهي العلوم التي نشأت في البيئة العربية الإسلامية، وشكلت المنظومة المعرفية عند المسلمين فإذا كان الحديث عن الفقه والكلام والنحو والحديث والفرق وغيرها من العلوم الإسلامية غائبة في تصنيف ابن سينا مثلا، فإنها كانت مدار التصنيف عند ابن النديم الذي جعل الصنف الأول من أصناف العلوم في لغات الأمم وكتب الشرائع والقرآن وعلومه، بينهما جعل الكيمياء في آخر الترتيب.

ويتجلى التركيز على العلوم الشرعية بشكل جلي عند ابن حزم الذي صنفها ضمن الصنف المحمود. كما أن طاش كبري زاده خص في تصنيفه العلوم الشرعية بدوحة مستقلة.

ب. مراعاة البعد اللغوي: ويراد به اللغة العربية لأنها اللغة التي صيغت بها هذه العلوم، فكانت العملية التصنيفية تتبع ما كتب من العلوم باللغة العربية، وهذا ما أفصح عنه ابن النديم في تصنيفه، وهذا ما يستوحي من كلامه في تصنيفه الذي اعتبره استقصاء تاريخيا للعلوم عند المسلمين حيث يقول: « هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم وأخبار مصنفيها »(21).

ج. توظيف المصطلح الشرعي: فهو حاضر بشكل واضح في تصنيفات ابن خلدون الذي اعتمد ثنائية النقل والعقل، وهما من المفاهيم المتداولة عند علماء الشريعة، وفي

21- ابن النديم، الفهرست، ص7.

تصنيف ابن حزم الذي اعتمد ثنائية المدح والذم المبنية على ما يوافق الشرع وما يخالفه.

فمن خلال هذه الدلائل من الاعتماد على توظيف المصطلح الشرعي، ومن خلال التركيز على ما كتب باللغة العربية، ومن خلال التركيز بشكل واضح على العلوم الشرعية، وهي العوامل المفقودة لدى التيار الأول عدت العملية التصنيفية عند هؤلاء عملية أصيلة، فهي متابعة واقعية للعلوم عند المسلمين وليس عند غيرهم كما يتجلى في الموقف الأول، وبناءً على هذا التميز اتصفت عملية التصنيف عند هؤلاء بخصائص تميزها عن التصنيف الأول وهي:

1. **الواقعية**: وهي خاصية تأتي في مقابل خاصية التجريد التي اتسمت بها عملية التصنيف عند التيار التقليدي، كما تتجلى واقعية هذا النموذج التصنيفي في المنطلق التصنيفي حيث تمت بناء على متابعته لما احتواه الواقع الإسلامي من علوم سواء برع فيها المسلمون أو غيرهم من أهل الذمة، كما تتجلى الواقعية في النسق البنائي الذي تم به كل تصنيف وهذا ما قال عنه النجار: « كان الترتيب محكوما بواقع العلوم في نشوئها وتطورها وتولد بعضها من بعض وبواقعها في وضعها الذي استقرت عليه في الوعي المعرفي الإسلامي »[22] وعلى مستوى آخر تتجلى الواقعية في الغاية من عملية التصنيف وهي الغاية التعليمية التي منتهاها الاعتقاد بالإسلام وتعلمه والدفاع عنه.
2. **التكامل**: فالتصنيفات التي مثلت هذه النزعة جاءت متكاملة متآلفة من خلال التركيز على ثنائية الدين واللغة، فما كتب باللغة العربية وفي المجال الإسلامي يكون من مشمولات هذا التصنيف، وقد صور طاش كبري زاده ذلك بقوله: « اعلم أن العلوم الاعتقادية إما متعلقة بالنقل أو بفهم المنقول أو تقريره وتشييده بالأدلة. أو استخراج الأحكام المستنبطة، فالنقل إن كان بما أتى به الرسول بواسطة الوحي فهو علم القرءان، أو بما صدر عن نفسه المؤيدة بالعصمة فعلم رواية الحديث وفهم المنقول إن كان من كلام الله تعالى فعلم تفسير القرآن، وإن كان من كلام الرسول فعلم دراية الحديث، والتقرير: إما الآراء فعلم أصول الدين، أو الأفعال فعلم أصول الفقه

22- عبد المجيد النجار: مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، ص65.

واستخراج الأحكام من أدلتها فعلم الفقه »[23].

3. **الغائية**: أي أنها تصنيفات كانت لها غاية ترجي منها وهي تعلم الإسلام والدفاع عنه كما تمت الإشارة إلى ذلك، ولهذا كان تركيزهم حتى على بعض العلوم المذمومة كالسحر والشعوذة والطلمسات، وهذا بغرض بيان كونها علوماً مذمومة شرعاً، وقد بين ابن خلدون أن الشريعة جعلت باب السحر والطلمسات والشعوذة باباً واحداً لما فيها من الضرر وخصته بالحضر والتحريم[24].

آثار عملية التصنيف على الفكر الإسلامي

من خلال ما سبق يمكن القول إن تصنيف العلوم وإشكال فلسفي اهتم به المسلمون في فترة من فترات تاريخهم، وقد تركت جملة آثار على الفكر الإسلامي، وهذه الآثار على اختلافها يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أصناف أساسية هي:

آثار معرفية

لقد تركت عملية تصنيف العلوم آثارا معرفية على الفكر الإسلامي، من حيث كونها ساهمت في الاطلاع على إشكاليات جديدة في البداية، ثم مكنت المسلمين من التأسيس لفضاء معرفي بعد ذلك، ويمكن القول إن هذه الآثار المعرفية تتمثل فيما يلي:

أ. الاطلاع على الفكر التصنيفي: عملية تصنيف العلوم عملية فلسفية هي في النهاية خلاصة تقاطع عدة معارف كما تمت الإشارة في مقدمة الدراسة، وبالتالي فشأن اطلاع للمسلمين عليه، فلسفية شأن الفلسفة كإطار عام لعملية التصنيف لم يكن هناك اطلاع للمسلمين عليه. وقد ذهب الشهرستاني إلى نفي فلسفة عند العرب حينما قال: « أكثر حكمهم فلتات الطبع وخطرات الفكر »[25]، ولذلك فأول تصنيف للمسلمين كان تصنيف الفارابي.

ب. نقل تجربة اليونان: أي تمكين المسلم من الاطلاع على تجربة اليونان في مجال تصنيف العلوم كنموذج من النماذج القديمة والتي أتيح نقلها أكثر من غيرها،

23- طاش كبري زاده: مفتح السعادة ومصباح السيادة، ج2، ص5.

24- ابن خلدون: المقدمة، ص496.

25- الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، بلا تاريخ، ج2، ص60.

والبدايات قد تكون اتباعا ثم يكون بعد ذلك الإبداع، وهذا الذي وقع في الإطار الإسلامي، فبعدما كان المسلمون مقلدة في تصنيفاته كما وجدنا مع الفارابي وابن سينا أبدعوا بعد ذلك مع ابن النديم وابن حزم وابن خلدون.

آثار إيديولوجية

تمثل في تشكيل رؤيتين وموقفين إيديولوجيين أحدهما مثل الاتباع والآخر مثل الإبداع، ويمكن القول إن التجلي الإيديولوجي لعملية التصنيف تمثل في هذين الخطين:

أ. تقليد اليونان: حيث وجدنا كيف كانت تصنيفات ابن سينا نسخا للتصنيف الأرسطي، وركز الفارابي على المنطق ورغم عدم وروده في التصنيف الأرسطي، وصارت الإشادة بالمعارف اليونانية مثل المنطق، وفي المقابل لإبعاد للعوم الإسلامية وإذا ما عرفنا أن مسألة التصنيف عند اليونان كانت مرتبطة بسؤال الوجود، ومن تجليات ذلك القول بالفيض مع الفارابي وابن سينا وإخوان الصفا.

ب. إبداع إسلامي: وهو الموقف الذي تميز عن سابقه من حيث المنطلق والوسيلة والغاية، حيث كان المنطلق الواقع الإسلامي، والوسيلة هي الشرع والغاية هي خدمة المعتقد الإسلامي ومن ثم تجلت ملامح الإبداع والأصالة الإسلامية التي تجاوزت تقليد اليونان في عدة أمور منها:

- تواصل المعارف عند المسلمين ما هو متعلق منها بأمور الدنيا مع ما هو متعلق بأمور الآخرة، مثل ما هو الحال في النموذج الرشدي، لقد كان ابن رشد قاضيا وطبيبا وفقيها رغم تباين هذه المعارف، ومثل ما هو الحال مع ابن سينا الطبيب الفيلسوف وغيرها.
- ومنها الشمولية في التكوين والتي كانت خاصية علماء الشريعة بشكل عام مثل الجويني والغزالي والرازي وابن تيمية ... وغيرهم.
- ومنها مراعاة البعد العقدي في عملية التصنيف وهذا الأمر من أهم تجليات البعد الإيديولوجي في عملية التصنيف إذ الغاية من عملية التصنيف تيسير تعلم العلوم الإسلامية التي تعين على تكوين فكر إسلامي مؤسس على المبادئ العقدية.

آثار قيمية

أي مراعاة قيم معينة يحتكم إليها في الحكم على العلوم من جهة قيمتها

وأهميتها وكيفية تعلمها وما إلى ذلك مما يتعلق بالمعرفة من منظور إسلامي.

ومن النماذج التي كرست في هذا النوع من الآثار ابن حزم الذي صنف المعرفة بناء على ثنائية المدح والذم وحكم على صلاحيتها وفق ذلك، أي وفق المدح والذم وكلاهما ضابط شرعي، فالمدح يعود إلى الواجب والمباح، والذم يعود إلى المحظور، وبناء علة أنها من العلوم المحمودة وهي علوم شرعية ويلحق بها في الحكم ما لا يتصادم معها من علوم مثل الطب والرياضيات وعلم الهيئة.

ومن جهة أخرى يصنف السحر والطلمسات والكيمياء على أنها من العلوم المذمومة، وهكذا تتجلى القيم الشرعية في عملية التصنيف ويتخذ منها معيارا في ذلك، وهو تصنيف يشبه تصنيف ابن خلدون من حيث إيراده لهذه المعارف المذمومة والممدوحة ففي مجال المدح نجده يذكر علم أصول الفقه على أنه: «من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدرا وأكثرها فائدة»[26] وفي مجال الذم تكلم عن السحر والطلمسات وقال عنها بأنها مهجورة في الشرائع والأديان لما فيها الضرر[27].

وهكذا تنوعت آثار عملية تصنيف العلوم عند المسلمين فتركت آثار إيديولوجية وأخرى معرفية وأخرى قيمية أسهمت بكيفية أو بأخرى في تعليمية العلوم عند المسلمين.

خاتمة

مما سبق ومن خلال الوقوف عند التصنيف العلوم عند المسلمين ومن أبعاد مختلفة نصل إلى أن:

- علم تصنيف العلوم فضاء معرفي عرفه المسلمون كما عرفه غيرهم، وهو موضوع من موضوعات الفلسفة الإسلامية، اعتنى فيه بكيفية إنجاز إحصاء منهجي للعلوم في الإسلام، وذلك بترتيبها ترتيبا معينا كان الهدف منه تيسير تعلم العلوم عند المسلمين، وقد ساعدت هذه العملية المنهجية على تكوين شمولي تميز به علماء الإسلام.

26- ابن خلدون: المقدمة، ص452.

27- المصدر نفسه، ص496.

- علم تصنيف العلوم عند المسلمين وإن كانت بدايته تقليدا لليونان إلا أنه تحرر من هذا التقليد وذلك بإنجاز تصنيفات أصيلة اتسمت بخصائص غير ذلك التي اتسمت بها عملية التصنيف عند اليونان سواء من جهة المنطلق أو من جهة الغاية.
- إن التصنيفات التي أنجزت في مرحلة التأصيل اتصفت بواقعية كبيرة حيث إنها كانت مبنية على تتبع للواقع الثقافي الإسلامي من خلال التركيز على العلوم الشرعية وعلى توظيف المصطلح الإسلامي، مما دل على أصالة وواقعية هذه التصنيفات.

إن عملية التصنيف كانت لها آثار متنوعة على الفكر الإسلامي، وإن كان الأثر الإيديولوجي ظل مصاحبا لعملية التصنيف، إلا أن الأثر المعرفي والأثر القيمي كان لهما دور كبير في تأكيد أصالة التصنيف الإسلامي، واستقلالية التصور الإسلامي وصلى الله على سيدنا محمد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.